أعظم الكتب العربية

(٥)

فــوزى خـــــضر

فى الطـــــب

(تخصصات مختلفة)

الناشر



رقــم الإيـداع : ٩٨/٨٢٥١
الترقيم الدولى : 977-276-395-8

الناشر
المكتب العربى للمعارف
١٠ ش الفريق محمد رشاد حسن
مصر الجديدة –ميدان الحجاز
ت : ٢٤٢١٥٢٦–٢٤٣٤٣٩٨
فاكس : ٢٤٨٨٦٥٣

تقديم

الكتب هى السجلات التى حفظت معارف البشرية، فنقلت خبرات الأقدمين إلى المحدثين، وساعدت الإنسان على أن يبدأ من حيث انتهى من قبله، وقد أعان هذا على أن تظل حركة التطوير دائمة فى نمو مطرد، وهى تشتمل على خلاصة الخبرات التى جمعها الآخرون، وتعد الكتب اختراعًا متقدمًا جدًّا إذا ما ألقينا نظرة سريعة على مسيرة الإنسان التى امتدت مئات الألوف من السنين.

وقد ابتدأ المؤرخون تاريخ العلم الإنسانى عند العصر الحجرى عندما قام الإنسان الأول بصنع آلات وأدوات وأسلحة من الحجر، ولاشك أنه حاول صناعة تلك الآلات والأسلحة وأخفق فى صناعتها فى بداية الأمر، ثم حاول مرات متتالية، إلى أن توصل إلى مايصلح لاحتياجاته، وهذه الصور البدائية من التجريب أعانت الإنسان على حل مشكلاته، وبالتالى عرف الطريق إلى العلم، وكان ذلك منذ مايقرب من أربعمائة ألف سنة حسب ماتدل الحفريات التى اكتشفها العلماء.

وعرف الإنسان كيف يصور حياته على جدران الكهوف -التى كان يسكنها- منذ حوالى ثلاثين ألف عام، فحفر أشكالاً لحركات يقوم بها، كما حفر صورًا لبعض الحيوانات التى كان يصطادها.

انتقل الإنسان إلى مرحلة أخرى منذ حوالى خمسة عشر ألف عام حين تحول من جامع للغذاء يلتقط الحبوب والثمار من الأشجار إلى منتج للغذاء إذ عرف الزراعة، ومن هنا عرف الأوقات المناسبة للبذر والغرس والأوقات المناسبة للحصاد، وأدرك العلاقة بين الزراعة وفصول السنة، ومع الاستقرار وازدياد العمران ظهرت معيشة الجماعات.

ومن الجدير بالذكر أن أعظم اكتشاف أفاد البشرية فى العصور البدائية الأولى هو اكتشاف الإنسان للنار، فقد طور هذا الاكتشاف الحياة البشرية تطويرًا مذهلاً.

وانتقل الإنسان بعد ذلك إلى عصر المعدن، ونشأت فئات متخصصة فى استخلاص المعادن من خاماتها، وعرف الإنسان التعدين، وانتقلت الحياة البشرية نقلة كبيرة، فبعد أن كانت أدواته وأسلحته لاتتعدى الحجارة وأخشاب الأشجار انفتحت أمامه دنيا عريضة من المعادن التى أسهمت فى حصوله على أسلحة فتاكة تعينه على القضاء على الوحوش المفترسة بأسلوب فعال وبجهد أقل، كما أسهمت فى تقدمه العلمى باختراع آلات وأدوات يدخل المعدن فى تركيبها.

وتكونت جماعات بشرية كبيرة على ضفاف وادى النيل، ثم نشأت الحضارة الفرعونية فى مصر، فعرف المصريون القدماء الزراعة على أصولها، ومسح الأراضى، والهندسة، وحساب الفيضان، والفلك، وتركيب أعضاء جسم الإنسان والتشريح، والكيمياء، ولعل الأهرامات

وفن التحنيط من الشواهد القاطعة على ماوصلوا إليه من رقى علمى؛ وكذلك بعض معابدهم ذات المواقع الغريبة، مثل معبد أبى سمبل جنوب أسوان الذى تدخله الشمس مرتين كل عام، مرة فى يوم مولد الفرعون، ومرة فى يوم اعتلائه عرش مصر، وهذا أمر مذهل يدل على ماحققوه من إنجازات جبارة فى علم الفلك، وكان القدماء يسمون المصريين (مادى الحبال)، وذلك لأنهم كانوا يمدون حبالاً، يقسم كل حبل إلى عقد بنسب معينة (٣،٤،٥ على سبيل المثال)، ويستخدمون تلك الحبال فى المساحة والعمران وتعيين الموقع الفلكى لمحور المعبد الذى يريدون تشييده، ويقول "دمقريط الأبديرى" الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد أنه رأى الاحتفال بمد الحبل، وهو الذى يتم فيه التعيين الفلكى لمحور المعبد بحيث ينطبق على خط الزوال، وذكر أنه رأى أحد الكهنة ينظر إلى النجم القطبى خلال عصا مشقوقة، بينما يقف كاهن آخر معه خيط مثبت فى العصا، ويتحرك الكاهن حتى يرى الخيط والنجم القطبى فى اتجاه واحد، وعند ذلك يضرب كل منهم وتدًا فى الأرض، ثم يمد حبلا بين الوتدين فيتحدد بذلك اتجاه خط الزوال.

وقد قامت الحضارات على ضفاف الأنهار، فكانت الحضارة الفرعونية فى وادى النيل، والآشورية والبابلية فيما بين النهرين، والصينية فى ماوراء النهر، كما قامت الحضارة الفينيقية على الساحل الشرقى للبحر المتوسط، وقامت الحضارة الهندية، والحضارة الفارسية فيما بعد.

وبازدياد العمران تشابكت المصالح فازدهرت التجارة، وتضاربت المصالح حينا آخر فقامت الحروب، وفى الحالتين احتاج الناس إلى العلم، فازدهرت علوم الفلك والرياضيات والتعدين والحساب والطب وغيرها، وتقدم كثير من الصناعات، وتطورت أساليب الزراعة.

وكان لكل حضارة مما ذكرنا عطاؤها الذى أفادت به البشرية بوجه أو بآخر، إلا أنه يهمنا فى هذا المجال أن المصريين والسومريين اخترعوا علامات تدل على حروف الهجاء أو المقاطع الهجائية، أما اختراع حروف الكتابة فقد بدأ فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد عند أهل جزيرة كريت وعند أهل رأس شمرا وأهل سيناء، إلا أن حروف الكتابة التى اخترعها الفينيقيون هى التى كتب لها البقاء، والتأثير فيما بعد، فإنه على مر الزمن أخذ اليونانيون حروف الكتابة الفينيقية، وأصلحوها بأن أضافوا إليها رموزًا جديدة، وجوهر الاختراع الفينيقى هو الدلالة على كل مخرج من مخارج الأصوات بأقل عدد ممكن من العلامات وبدون حدوث لبس، وهكذا اهتدى الفينيقيون إلى التوصل إلى حروف الكتابة ببساطة بالغة، استفادت منها الشعوب السامية الأخرى.

وامتدت مسيرة العلم الإنسانى فانتقلت المعارف التى حققتها الحضارات القديمة إلى الإغريق، وقد بدأت الحضارة الإغريقية -اليونانية- بهوميروس فى القرن التاسع أو الثامن من قبل الميلاد، وبدأ العلم اليونانى بالعالِم طاليس فى القرن السابع قبل الميلاد، ثم فيثاغورس

فى القرن السادس قبل الميلاد، ثم ظهر أبقراط وسقراط وأرسطو فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، وبموت الإسكندر وموت أرسطو بعده بعام واحد سنة ٣٢٢ ق.م تفرق خلفاء الإسكندر فى البلاد، ووقعوا تحت الاضطهاد السياسى، فارتحل معظم العلماء إلى الإسكندرية حيث كان البطالمة يحكمون مصر، وكانوا معروفين بحبهم للعلم ورعايتهم للعلماء، وأنشئت جامعة الإسكندرية القديمة -وبها مكتبة الإسكندرية- فكانت منارًا للعلم عدة قرون، وأنجب العصر الإسكندرى عددًا من العلماء المرموقين أمثال بطليموس وإقليدس وجالينوس وديسقوريدس وهيرون وثاون وابنته هيباتيا وهيروقليس وأرشيدس وغيرهم، ثم وقع اضطهاد دينى بين المسيحيين والوثنيين فهاجر العلماء شرقًا، حيث استقر عدد منهم فى جنوب بساور.

وخَفَتَ التوهج فى شعلة الحضارة اليونانينة بتفرق العلماء فى البلاد المختلفة، وإن ظلت لها بعض الإبداعات الفنية.

ويجدر بنا هنا أن نذكر أن ورق البردى المصرى قد حفظ للأجيال علوم اليونان وغيرهم، فإن اختراع الكتابة قد بلغ قمته الغالية بالنسبة للإنسانية حين اخترع المصريون أوراق البردى التى تفوقت على ماعداها من مواد الكتابة مثل العظام والفخار والعاج والجلد والكتان، إذ إن تلك المواد تظل قطعا غير متصلة ولايمكن الاحتفاظ بها مجموعة لعدة قرون من الزمان، أما ورق البردى فقد أدرك المصريون أنه يمكن لصق كثير من

الصفحات بعضها إلى بعض، كل ورقة فى ذيل الأخرى، فكونوا لفة من الأوراق يمكنها استيعاب أى نص مهما كان طوله سواء كان علميًّا أو أدبيا أو تاريخيا أو غيره، واختلف عرض لفة البردى من ٣ إلى ١٨ قدمًا، بينما توقف طولها على طول النص الذى تحتويه، وأطول بردية موجودة فى العالم هى بردية هاريس رقم ١ التى عرضها ١٦ قدمًا بينما يبلغ طولها ١٣٣ قدمًا، وهى محفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٩٩٩٩، ويكفى أن نعلم أن مكتبة الإسكندرية احتوت على مئات الألوف من لفافات البردى التى تشتمل على العلوم والآداب المختلفة لندرك إلى أى مدى وصل العلم والأدب فى العصر الإسكندرى، وبعد اختراع المصريين للبردى بخمسة آلاف سنة تقريبًا، استطاع الصينيون أن يخترعوا الورق الذى أدى دورًا مهما فى نشر المعارف الحضارية فى العالم كله.

ونتيجة للاضطهاد الدينى -كما قلنا- اضطر علماء الإسكندرية إلى الهروب عبر البلاد، وكانت العلوم -آنذاك- مكتوبة بعدة لغات يأتى فى مقدمتها اليونانية، ثم السريانية والعبرية والهندية والفارسية، وهى اللغات التى كانت تجمع المعارف البشرية.

ثم سطع نور الإسلام على العالم، وأخذت تتوسع رقعة الدولة الإسلامية، حتى وصلت إلى مشارف الصين شرقًا، وإلى مشارف فرنسا غربًا، وانتشر الإسلام بين أهل تلك البلاد وانتشرت معه اللغة العربية

التى هى لغة القرآن الكريم واللغة الرسمية للدولة الإسلامية.

وكانت الأمية متفشية، ولم يهتم الناس بتعلم الكتابة إلا فيما ندر، إذ إنهم كانوا يعظمون من شأن الذاكرة، ويعتمدون عليها، ولايشعرون بحاجتهم إلى الكتابة، فهم يحفظون القرآن الكريم، ويحفظون الأشعار، ويحفظون أيام العرب وتواريخهم، وينتقل بينهم مايعرفونه بالرواية، لدرجة أنهم جعلوا أخذ المعلومة من كتاب هى أدنى درجات العلم، بينما أخذه بالمشافهة يعد أعلى درجاته، إذ يكون مصدر المعلومة محققا فى تلك الحالة.

ولم يبدأ التدوين -بمعناه الواسع- إلا فى القرن الثانى الهجرى -الثامن الميلادى- فدون العرب كتب الحديث والأدب والتاريخ، ثم امتد التدوين إلى فروع أخرى مثل الفقة والتفسير وعلم الرجال وغيرها، وبعد ذلك بدأت حركة الترجمة، ثم اتسعت لتشمل كل العلوم التى عرفتها الأمم الأخرى، وترجمت الكتب اليونانية والسريانية والفارسية، وأنشئت المدارس والمكتبات، واهتم الخلفاء بالكتب واهتموا بترجمتها، لدرجة أن الخليفة المأمون كان يدفع وزن مايترجم ذهبًا! وامتد الاهتمام بالترجمة إلى الأسر الثرية مثل أسرة موسى بن شاكر الذى أحضر مترجمين وصرف لهم رواتب حتى يترجموا له كتب العلوم المختلفة، وانتشر التعليم وسار الاهتمام بالعلوم الدنيوية جنبًا إلى جنب مع العلوم الدينية.

وبدأ العرب بدراسة الكتب التى تمت ترجمتها، ثم أخذوا يكتبون شروحًا لها، ويسجلون مختصرات لبعضها، وظهر فلكيون وأطباء وصيادلة، فبنيت المراصد وأنشئت المستشفيات، وأقيمت المدارس التى تدرس فيها الرياضيات وعلم النبات وعلم الحيوان والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وغيرها.

بدأت بعد ذلك مرحلة الإبداع العلمى، إذ لم يكتف العرب بما حصلوه من معارف بل أخذوا يطورون تلك المعارف ويبحثون فيها ويضيفون إليها، فبرز منهم كثير من العلماء فى شتى المجالات، وكانوا علامات مضيئة فى تاريخ العلم العالمى، وقامت الحضارة العربية بأيدى أبنائها وعقولهم المستنيرة وإخلاصهم فى عملهم وأبحاثهم، ولا يمكن لأمة أن تتقدم إلا إذا تفانى أبناؤها فى سبيل تقدمها مسلحين بالعلم المتطور والعمل الجاد والأخلاق الكريمة، فالعلم الحديث هو الذى يجعلهم يقفون على أرض معرفية صلبة، والعمل الجاد هو الذى يجعلهم يحققون الإنجاز والإضافة، والأخلاق الكريمة هى التى توفر لهم الأمانة العلمية والعملية، فلا يمكن للعالم الحق إلا أن يكون صادقًا مع نفسه وهو يقوم بأبحاثه، أمينًا فى أدائها وفى الاطمئنان إلى نتائجها.

وإن النظر إلى الحضارة الإسلامية يدعونا للفخر، فقد استطاع أجدادنا أن يقودوا العالم حين أخلصوا العمل وتفانوا فى سبيل العلم، وهذا الأمر يجعلنا نثق فى قدرات العقل العربى على الإبداع، وها هى

ذى النمـاذج أمامنـا تشـير إلى أن العـرب بـدءوا العمـل العلمـى الجـاد على مسـتوى العـالم أجمـع، ولعـل أسمـاء مثـل د.مصطفـى مشـرفة، ثـم د.مجدى يعقـوب، ود.فاروق الباز، ود.أحمد زويل تكون هى بداية الغيث الذى سيعيد للعرب مكانتهم فى مسيرة الحضارة الإنسانية.

وقد طرح الأستاذ ممدوح الغالى فكرة تأليف عدد من الكتب تعرِّف الجيل الحالى بأهم الكتب العربية التى أسهمت فى تقدم البشرية فى كافة المجالات التى كتب فيها العرب أبحاثهم، وتفضل -مشكورًا- بالتحمس لطباعتها ونشرها، للتعريف بما قدمه العرب للعالم، وخاصة أنه ظهر عدد كبـير مـن العلمـاء -مـن حـدود الصـين إلى حـدود فرنسـا- ألفـوا كتبهـم باللغـة العربيـة، فكـانت من أعظم الكتب التى أفادت الحضارة الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة.

وقد جعلت كل كتاب فى علم من العلوم التى أسهمت العرب فى تقدمها، فبدأت الكتاب بنبذة عن ذلك العلم وتاريخه، ثم عرضت عددًا من الكتب العربية المختارة، وقد رأيت أن يعرض كل كتاب من خلال قصـة تمهـد للحديـث عـن الكتـاب مـن جهـة، وتحقـق نوعًـا مـن التشـويق للقارئ من جهة أخرى، فتعينه على تقبل الحديث عن مادة ربما لاتكون من ضمن اهتماماته، وقد ذكرت تعريفا بالكتاب ومحتوياته، ثم أهميته، ثم ذكرت نبذة عن مؤلفه.

ولايخفى على القارئ مابذل من جهد فى سبيل جمع مادة للتعريف بهذه الكتب، خاصة أن بعضها نادر الوجود، وبعضها لايوجد إلا فى المخطوطات، ومنها ماهو فى مصر، ومنها ماهو خارجها، بالإضافة إلى المراجع العربية والأجنبية الخاصة بالعلوم وتاريخها، والتى تبين قيمة الكتاب وعظمته فى مجال تخصصه، لكن العناء يهون حين يرى الإنسان ثمرة عمله.

وأسأل الله -عز وجل- أن يكون فى هذه الكتب مايفيد المطلع عليها.

والله ولى التوفيق،

فوزي خضر

الإسكندرية (١٤١٩هـ-١٩٩٨م)

التخصصات الطبية

بدأ الطب عامًا ، فكان الطبيب يدرس أجزاء الجسم وأجهزته جميعها، ويدرس ما يصيبها من أمراض، ويدرس طرق علاج كل مرض منها، وحين يتصدى لممارسة مهنة الطب فإنه كان يعالج المريض مهما كان نوع المرض الذى يعانى منه، ومهما كان الجزء المصاب رأسًا أو بطنًا أو عينًا أو أسنانًا أو غيرها.

انقسم الطب بعد ذلك إلى فروع فظهرت التخصصات الطبية المختلفة، فبرز أطباء تخصصوا فى علاج فئة واحدة مثل أولئك الذين تخصصوا فى علاج الأطفال ، أو الذين تخصصوا فى أمراض تصيب عضوًا واحدًا من أعضاء الجسم مثل الأمراض العقلية، أو الذين تخصصوا فى أسلوب علاجى مثل الجراحة ، وجميع هذه التخصصات قد ظهرت على أيدى الأطباء العرب.

وقد أنشأ العرب المستشفيات وتوسعوا فيها، حتى يمكن للأطباء أن يمارسوا تخصصاتهم المختلفة، وحتى يتمكن المرضى من الحصول على الرعاية المناسبة، وكانوا يطلقون على المستشفى اسم بيمارستان، وهى كلمة فارسية تعنى مكان العلاج أو مكان علاج المرضى. وكان الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك بن مروان أول من أنشأ مستشفى فى

الإسلام سنة ٨٨هجرية، وذكر الإمام الطبرى أن ذلك الخليفة أمر بحبس المجذومين فى مكان واحد وأجرى عليهم الأرزاق، وكان ذلك أول **حجر صحى يقام فى دولة الإسلام.**

وتقول لافينيا دوك فى كتابها (المختصر فى تاريخ التمريض):

"ازدهرت المدن فى العالم العربى بمستشفياتها وترتيب العيادات الداخلية والخارجية حسب نوع المرض، لذا نجد أن علاجاتهم التى يقومون بها تنم على خبرة متميزة ، فهناك الأطباء المشهورون الذين يسعى إليهم المرضى من جميع أنحاء العالم مثل ابن سينا والرازى والزهراوى وغيرهم كثير، وهناك أطباء عرب تخصصوا فى علاج العيون فى حالاتها المستعصية، وكذلك علاج المصابين بالجذام والأعصاب. والحقيقة أن أطباء العرب والمسلمين برزوا وتفوقوا على غيرهم خلال القرون الوسطى فى جميع فروع الطب. وامتاز أطباء العرب بكونهم لا يفرّقون بين المواطنين غنيهم وفقيرهم على حد سواء، وهذه تكاد تكون ميزة انفرد بها أطباء العرب".

وهذه الفقرة تدلنا على عدة أشياء، أهمها أن المستشفى كان يحتوى على عيادات خارجية للحالات التى تحتاج إلى علاج، تحصل عليه وتعود إلى ديارها، وكان يحتوى أيضًا على أقسام داخلية لحجز الحالات التى تستلزم متابعة مستمرة من الطبيب، وعلى هذا التقسيم تقوم المستشفيات فى العصر الحديث.

تدلنا هذه الفقرة أيضًا على أن بعض أطباء العرب نالوا شهرة عالمية فى عصورهم، وعلى أن منهم من تخصص فى فرع طبى، فاستطاعوا بذلك تحقيق تقدم فى الفروع المختلفة.

كما تدلنا الفقرة أيضًا على أن الأطباء العرب تحلوا بالأخلاق الكريمة، فلم يكن همهم المال، وإنما كان همهم الأساسى هو علاج المرضى دون تفرقة بين مريض ثرى ومريض فقير.

ويمكننا القول إن العرب استطاعوا أن يقسموا العلوم الطبية إلى فروع تخصصية، وظهر أثر التخصص واضحًا فى الرفع من كفاءة المتخصص.

و لم تتوقف عجلة التخصص الطبى عن الدوران، إذ عمل الأطباء على مزيد من التخصص، فظهرت فروع أخرى مثل الأنف والأذن والحنجرة، والمسالك البولية والقلب، وظهر طب المناطق الحارة وطب المناطق الباردة ، حتى التخصص الواحد مثل طب الأطفال انقسم إلى طب الأطفال، والأطفال المبتسرين ، وجراحة الأطفال ، كما ظهرت التخصصات الطبية المعاونة مثل التحاليل الطبية والأشعة، أشعة X ثم الأشعة المقطعية ، وظهر الليزر، والموجات الصوتية والمناظير وغيرها.

و لم يزل الطب فى تقدم بفضل أبحاث العلماء ، ولكن يظل الفضل فى تقسيم الطب إلى تخصصات لعلماء العرب الذين كانوا روادًا فى هذا المجال، مما يشهد لهم بالنبوغ والتفوق والعبقرية.

* * *



كتاب

تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم

طُرق الباب بطرقات مرحة ، أسرعت نجوى ففتحت الباب وهى تنظر إلى أخيها أحمد متسائلة. لقد علمت الجواب من أسارير وجهه لكنها أرادت أن تستمع بأذنيها إلى ما يحقق لها السعادة.. سألته :

ماذا فعلت يا أحمد ؟

قال لها :

نجحت بتقدير جيد جدًا.

لم تتمالك نجوى مشاعرها، فأطلقت زغرودة ، وسالت دموع الفرح على خديها، لقد عانت كثيرًا فى سبيل أن يحصل أخوها على بكالوريوس الطب.

وجلست على مقعد قريب، فاقترب أحمد منها ومسح دموعها وقال لها مداعبًا :

هل حزنت لأننى نجحت يانجوى؟

قالت له :

بل إن دموعى هذه تغسل عنى تعب السنوات يا أحمد، وتبعد عنى معاناة الليالى الطويلة، فى انتظار أن تحقق حلمنا جميعًا، وهو أن تصبح طبيبًا فى يوم من الأيام، وهأنتذا قد حققت لنا ما تمنيناه.

كان يومًا بهيجًا امتلأت فيه الدار بالفرحة والسعادة، وحاولت الأحزان أن تتسرب إلى أفراح الإخوة والأخوات، حين ذكرت ماجدة أنها كانت تتمنى أن يشهد والداها هذا اليوم السعيد.

تذكروا أن والديهم قد توفيا فى حادث سيارة منذ خمس سنوات، وأن نجوى -الأخت الكبرى- قد وقفت بثبات لتنفق على إخوتها وأخواتها من راتبها الذى كان يكفى نفقاتهم بالكاد مع معاش والدهم رحمه الله، وانتبهت نجوى، ولم تشأ أن تقتحم الأحزان جلستهم الهانئة، فيبدِّد سوادُها ما أشرق عليهم من نور الأفراح، فقالت لأحمد:

خبرنى يا أحمد ، فى أى فرع من فروع الطب تنوى أن تتخصص؟

قال لها :

فى أصعب الفروع.

سألته :

وماهو ؟

أجابها :

طب الأطفال.

ضحكت أخته ماجدة، وضحك أخوه الأصغر على ، فقال لهم أحمد:

على أى شئ تضحكون؟ إن طب الأطفال هو أصعب فروع الطب بالفعل.

سألته ماجدة:

كيف يا أحمد ؟

أجابها :

إن المريض الكبير يمكنه أن يشكو مما يعانى منه، أما الطفل فلا يشكو وإنما يبكى، ولذلك يكون على الطبيب أن يحاول اكتشاف مرضه من خلال ظواهر معينة تبدو عليه.

حينذاك نظرت إليه أخته الكبرى نجوى نظرة طويلة وسألته وهى تتعجب مما قال:

ولماذا تختار أصعب الفروع يا أخى إذا كان باستطاعتك أن تختار ماهو أقل صعوبة منه؟

أجابها أحمد :

لقد اطلعت منذ عدة سنوات على كتاب لطبيب عربى اسمه أحمد البلدى، وهذا الطبيب أول من تخصص فى العالم فى طب الأطفال، فأردت أن أتخرج فى كلية الطب كى اتبع نفس تخصصه لشدة إعجابى به وبكتابه.

التفوا جميعهم حول أحمد، وطلبوا منه أن يحدثهم عن الطبيب أحمد البلدى وكتابه ، فجلس يحكى لهم عنه.

* * *

الكتاب

كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، ألّفه أحمد بن محمد البلدى الطبيب،، وهو من أجلّ الكتب التى تم تأليفها فى طب الأطفال، وكان يرى أن رعاية الطفل يجب أن تبدأ وهو فى بطن أمه، لذلك كانت رعاية الأم الحامل هى الخطوة الأولى لرعاية الطفل، وهى رؤية علمية متقدمة جدًّا.

وعنوان الكتاب يدل على محتواه، فهو يُعنى بتدبير الأحوال الصحية للحبالى وللأطفال وللصبيان، ويبحث الوسائل التى تساعد على حفظ صحتهم وعدم تعرضهم للأمراض، ويبحث أيضًا فى طرق علاجهم إذا تعرضوا إلى أحد الأمراض.

وقد بدأ كتابه بتدبير الحوامل ، فتعرض لما يجب أن تتناوله المرأة الحامل من أطعمة ، وما يجب عليها ممارسته من رياضة، وما يخشى

عليها من حركات عنيفة ، وتعرض أيضًا للحالة النفسية للحامل، ثم أشار إلى التورم الطبيعى الذى يمكن أن يصيب قدمى المرأة أثناء الحمل، وفى ذلك يقول عن الحوامل :

"يجب الاهتمام بأغذيتهن، فيتركن الدسم الشديد الدسومة، والحلو الشديد الحلاوة، ويجب أن يُكَلَّفْنَ الرياضة المعتدلة، والمشى الرقيق من غير إفراط، ويجب أن يجتنبن الحركة المفرطة، والوثبة، والضربة، والسقطة، والامتلاء من الغذاء، ويجب أن يجتنبن الغضب، ولا يورد عليهن ما يغمهن ويحزنهن، ويُبعد عنهن جميع أسباب الإسقاط، وخصوصًا فى الشهور الأولى، أما تورم أقدام الحوامل فننصح بأن تضمد أقدامهن بورق الكرنب أو تضمد بشَبَّتٍ بالخل".

وانتقل أحمد بن محمد البلدى بعد ذلك إلى الحديث عن الأطفال حديثى الولادة، فقال إن أول شىء يجب إطعامه للطفل المولود أن يلعق عسلاً لتفريغ مافى بطنه من مادة سوداء. وهذه إحدى معارف الطب الحديث الآن، إذ يجب التخلص أولاً من مادة الميكونيوم الموجودة فى أمعاء المولود قبل أن يبدأ الرضاعة. وأوصى أن يرضع المولود من أمه إلا إذا وُجِدَ مانع مثل ضعف لبن الأم أو قلّته أو فساده، وحينذاك يجب اختيار مرضعة ، وقد وضع لها شروطًا:

١- أن يكون عمرها بين ٢٥ و ٣٥ عامًا فهو سن الشباب والصحة.

٢- أن تكون حسنة اللون ، سوية السمنة، قوية الجسد، كثيرة

اللحم لا كثيرة الشحم.

٣- أن يكون قوام لبنها معتدلاً ومقداره معتدلاً ولونه يميل إلى البياض.

٤- أن تكون رائحة لبنها طيبة.

٥- أن يميل لبنها إلى الكثرة ولا يكون رقيقًا سيّالاً ، ولا غليظًا جُبنيًّا، فاللبن المحمود هو المتعادل الجبنية والمائية.

٦- أن تكون محمودة الأخلاق، بطيئة عن الانفعالات الرديئة من الغضب والغم والجبن وغير ذلك، فإن ذلك يفسد المزاج وربما أعدى بالرضاع.

وانتقل البلدى إلى المرحلة التالية فى حياة الأطفال، فعرض كثيرًا من الأمراض التى تعرض لهم وكيفية علاجها، من تلك الأمراض: الأورام التى تعرض لهم فى اللثة عند نبات الأسنان، والإسهال، وسوء التنفس، وسيلان الآذان ، والحميات، والمغص ، والتهاب الفخذ، ونتوء السرة وغيرها.

وذكر البلدى أمورًا فى غاية الأهمية حين تعرض لحفظ صحة الصبيان، فقال إنه يجب المحافظة على صحة الصبى فلا يقع تحت وطأة غضب شديد أو خوف شديدأو سهر أو غم. وقال إنه يجب أن يُطلق له اللعب ولكن بتنظيم، ولا يُعطى الماءأثناء الطعام، فإذا بلغ الصبى سبع سنوات من عمره وجب أن يُدفع به إلى معلّم مؤدِّب، ويجب أن يُعطى

له العلم بالتدريج، ويجب ممارسة الرياضة بين السابعة والرابعة عشرة من العمر بشرط ألا تكون رياضات عنيفة.

انتشر الكتاب انتشارًا واسعًا، حتى تناقله العامة، ولم يقتصر الحرص على اقتنائه على الأطباء وحدهم، وكان له دور فعّال فى إيجاد أجيال من الأطباء الذين تخصصوا فى طب الأطفال.

* * *

أهمية الكتاب :

انتشر بين الناس كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم، وشهد أحمد بن محمد البلدى انتشار كتابه خلال حياته إذ حرص الناس على اقتنائه للإفادة منهم، وحقق ثقافة شعبية بشأن رعاية الحامل والعمل على حفظ صحة الأطفال والصبيان، مما أخرج الكتاب من كونه مجرد كتاب طبى مفيد للأطباء والمتخصصين إلى تحقيق المكانة الرفيعة بصفته كتابًا ثقافيًّا مهمًّا لكافة الناس.

كذلك كان لهذا الكتاب دوره المتميز فى تقدم طب الأطفال، إذ كان فى مقدمة الكتب الطبية التى أفاد منها الأطباء، خاصة تلك الفصول التى كتبها فى الأمراض التى تعرض للحوامل والأطفال والصبيان وسبل علاجها.

وبالرغم من الانتشار الواسع للكتاب إلا أنه مع مرور القرون لم يعد منه الآن غير أربع نسخ مخطوطة، متفرقة فى مكتبات العالم، إحداها فى مكتبة جوتا، والثانية فى كلكتا، والثالثة فى بنكيبور، والمخطوطة الرابعة موجودة فى مكتبة الجمعية الآسيوية بالبنغال.

* * *

المؤلف :

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى البلدى ، عاش فى القرن الرابع الهجرى، ولد ونشأ فى مدينة (بَلَد) الواقعة بالقرب من الموصل.

تعلم البلدى فى بلده، فلما أراد التعمق فى دراسة الطب ارتحل إلى الموصل حيث تتلمذ على يد الطبيب أحمد بن أبى الأشعث الذى كان من أبرع الأطباء فى عصره، وله تلاميذ علماء أمثال البلدى وابن ثواب وغيرهما.

نال أحمد بن محمد البلدى شهرة عريضة فى مداواة الأطفال لدرجة أن شهرته وصلت إلى مصر، فاستدعاه الوزير يعقوب بن كلس الذى كان وزيرًا للخليفة العزيز الفاطمى.

أقام البلدى فى مصر فى عيش رغد ونال المكانة والثراء، ثم طلب منه الوزير أن يؤلف كتابًا فى طب الأطفال، يعين الأطباء فى البلدان

المختلفة، ويفيد الأجيال القادمة، فألف كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم.

أدرك البلدى بضع سنوات من حكم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، ويُذكر للبلدى أنه كان أول طبيب متخصص فى طب الأطفال فى العالم كله.

* * *

سعد الجميع حين استمعوا إلى حكاية الطبيب أحمد البلدى وكتابه الرائد، وحينذاك أيّدت نجوى رأى أخيها أحمد فى رغبته الملحّة فى التخصص فى طب الأطفال.

* * *

كتاب
خَلْق الجنين
وتدبير الحبالى والمولودين

ارتجت أسلاك الهاتف حين زعق المهندس مدحت فى زوجته فوقية، وظهر صوته واضحًا من خلال السمّاعة التى حاولت إلصاقها بأذنها بشدة لتكتم الصوت، ولكن باءت محاولتها بالإخفاق، ووصل زعيق زوجها إلى أذنى زميلتها الجالسة بجوارها، لكن زميلتها حاولت أن تبين لها أنها مشغولة فى تنسيق الورود الموضوعة على المنضدة.

قال لها مدحت :

كيف ستظلين طوال اليوم بالمستشفى ؟ ولماذا لم تخبرينى بذلك منذ الأمس؟ وماذا سنفعل فى الأولاد والمفروض أن تحضريهم من مدارسهم؟ وما ذلك الذى يضطرك إلى البقاء فى المستشفى إلى المغرب؟

قالت له فوقية :

سوف يحضر عميد كلية الطب لافتتاح قسم جديد فى المستشفى، وسأكون أنا مشرفة التمريض المسئولة عن ذلك القسم.

سألها :

ولماذا لم تخبريني عن ذلك بالأمس؟

أجابته :

كان المفروض أن يفتتح القسم فى الأسبوع القادم، لكن العميد قرر افتتاحه اليوم، لأنه سوف يسافر إلى خارج البلاد فى مهمة تخص الجامعة.

سألها غاضبًا :

وكيف يفتتح اليوم ماكان مقدَّرًا له أن يفتتح فى الأسبوع القادم؟

أجابته : لقد تم إعداده للافتتاح بالفعل.

صرخ مدحت منفعلاً :

والأولاد ؟ من سيحضرهم من مدارسهم؟

قالت له فوقية :

حاول أن تتصرف يامدحت.

سألها زاعقًا :

كيف ؟ وأنت تعلمين أننى لا أخرج من عملى قبل الثالثة والنصف عصرًا؟

قالت له بهدوء :

حاول أن تستأذن اليوم ياحبيبى.

زاد زعيقه غاضبًا ، ناقمًا على المستشفى ومن فيه، ثم وضع سماعة الهاتف وهو ينفخ من شدة الغضب والضيق، سأله زميله عما به ، وحين

أخبره بالأمر قال له :

ليست هناك مشكلة يامدحت، يمكنك الذهاب الآن لتدرك أولادك، وأنا سأقوم بعملك .

اتصلت فوقية بالمنزل فى الوقت الذى توقعت فيه أن يكون مدحت قد اصطحب الأولاد من مدارسهم إلى البيت.

رد عليها وهو لم يزل غاضبًا ، فأخبرته أنه يمكنه المجىء لحضور حفل الافتتاح، لم يوافق فى البداية، لكنه وافق على الحضور حين ألحت عليه وأخبرته بأنه يمكنه أن يطلب من والدته أن تأتى لمنزلهم فتجلس مع الأولاد حتى يعودا هما من الحفل، وخاصة أن المنزلين متجاوران.

وصل مدحت إلى قاعة الحفل بعد أن فرغ عميد كلية الطب من إلقاء كلمته ، ووقف رئيس القسم الجديد يلقى كلمة على الحاضرين، شكر عميد الكلية فى البداية ، وتوجه بالحديث بعد ذلك إلى فريق الأطباء وجماعة التمريض والذين سيتاعبون العمل فى ذلك القسم الجديد وسوف يتحملون مسئوليته.

أخبرهم أن هذا القسم الجديد خاص بالأطفال حديثى الولادة، وهم يصابون بأمراض بعضها لا يصيب غيرهم، ثم أراد أن يجذب انتباه الحاضرين فقال لهم إنه مما يدعو إلى الفخر أن أول طبيب متخصص فى الأطفال حديثى الولادة كان طبيبًا عربيًّا، وألّف أول كتاب فى العالم فى هذا المجال، وأخذ يحدثهم عن الكتاب وعن صاحبه.

كان مدحت ينصت باهتمام شديدإلى مايقوله الطبيب.

* * *

الكتاب

يعد كتاب خَلْق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين الذى ألّفه عَرِيبُ بن سعيد القرطبى من أعظم الكتب التى تعرضت لطب الأطفال، بحث فيه مؤلّفُه بطريقة علمية شاملة تطور الجنين فى رحم الأم ، وأحوال الولادة، والعناية بالحبالى والمرضعات، وتدبير الأطفال ، والعناية بطعامهم وشرابهم وشئون صحتهم العامة، والعناية بنموهم جسمانيًّا وعقليًّا حتى يصيروا صبية، فهو كتاب متخصص فى طب الأطفال بدءًا من الطور الجنينى حتى مرحلة الصبا.

وقد ذكر فى كتابه معلومات قيمة فى جميع فصوله ، ففى حديثه عن خَلْقِ الجنين – على سبيل المثال – أورد معلومات كانت مصدرًا لكل ما كُتب بعده فى هذا المجال إذ قال :

"إذا اشتملت الرحم على ماء الرجل فإن أول الأحوال أن تحدث هناك زبدية ماء الرجل، وهو من فعل القوة المصوِّرة لما كان فى ذلك الماء من الروح النفسانى والطبيعى إلى معدن كل واحد منها، ليستقر

فيه، ويتخلق ذلك العضو منه، ولذلك يوجد النفخ كله ، يندفع إلى وسط الرطوبة إعدادًا لمكان القلب، ثم يكون عن جانبه الأيمن وجانبه الأيسر انتفاخان كأنهما خارجان منه يماسانه إلى حين ، ثم يتنحيان عنه ويتميزان ، ويصير الأول علقة للقلب ، والأيمن علقة للكبد ، ويمتلىء الأيسر من دمٍ إلى بياضٍ ، وينفذ إلى ظاهر الرطوبة المبثوثة نفذ نفخٍ ريحيٍّ يثقبه ، لينال منه المدد من الرحم من الروح والدم، وتتخلف السرة، ثم يتبدل حال النفاخات فيتحول الرغوى منها إلى دموية ما ، وتتحول السرة إلى هيئة (أى شكل) السرة تحولاً محسوسًا، وثالث الأحوال هو تحول ماء الرجل إلى العلقة، وبعدها تحوله إلى المضغة ، وتكون الأعضاء الرئيسية قد ظهر لها انفصال محسوس وقدر محسوس، وبعدها يتحول إلى أن يتم تكون القلب والأعضاء الأولى، ويبتدئ تنحِّى الأعضاء بعضها عن بعض".

ونجد أنفسنا أمام معلومات طبية دقيقة تدعو للعجب، بل ربما للذهول مما سطره ابن سعيد القرطبى فى كتابه خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين، فهو يذكر منذ أحد عشر قرنًا مايذكره الطب الحديث الآن بشأن خلق الجنين بحساب الأيام فى رحم الأم فيقول :

"أما مدة الرغوة فستة أيام إلى سبعة، وفى هذه الأيام تتصرف المصوِّرة فى النطفة من غير استمداد فى الرحم، وبعد ذلك تستمد، وابتداء الخطوط والنقط بعد ذلك بثلاثة أيام أخرى فتكون تسعة أيام من

الابتداء، وقد يتقدم يومًا أو يتأخر يومًا، ثم بعد ستة أيام أخرى -يكون الخامس عشر من العلوق - تنفذ الدموية في الجميع فتصير علقة، وربما تقدم ذلك يومًا أو يومين، وبعد ذلك باثنى عشر يومًا تصير الرطوبة لحمًا، وقد تميزت قطع لحم، وتميزت الأعضاء الثلاثة تميزًا ظاهرًا، وقد تنحى بعضها عن ملامسة بعض ، وامتدت رطوبة النخاع ، وربما تأخر أو تقدم بيومين أو ثلاثة ، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن، تميزًا يُحس في بعضهم ، ويخفى في بعض، حتى يحس بعد ذلك بأربعة أيام تكملة الأربعين يومًا، ويتأخر في النادر إلى خمسة وأربعين يومًا، والأقل في ذلك ثلاثون يومًا، ومن ابتداء العلوق ثلاثة أضعاف المدة إلى الحركة ولد ، واللبن يحدث مع تحريك الجنين ، وقد قيل إن الزمان العدل الوسط لتصوره خمسة وثلاثون يومًا، ويولَّد في مائتين وعشرة أيام، وذلك سبعة أشهر، وإذا كان الأكثر لخمسة وأربعين يومًا فيتحرك في تسعين يومًا، ويُولَّد في مائتين وسبعين يومًا، وذلك تسعة أشهر ، وقد يقع في هذا أيضًا اختلافٌ في أيام بمثل ما قيل" .

وتكلم عريب القرطبي بعد ذلك عن الولادة ، وعن إخراج المشيمة، والأشكال الطبيعية وغير الطبيعية للولادة ، ثم تحدث عن الرضيع ، وعن الأطفال حتى سن الصبا.

ترجم الكتاب إلى اللغة العبرية شتاين شنا بدر ونشره سنة ١٨٧٤م، وتوجد من الكتاب مخطوطة عربية وحيدة محفوظة في مكتبة الإسكوريال.

* * *

أهمية الكتاب :

يعد كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين لعريب بن سعيد القرطبي من الكتب النادرة في الطب العالمي، إذ إنه الكتاب الوحيد الذي اقتصر على الحديث عن تكوين الجنين وطب الأطفال حديثي الولادة.

ولم يصبح هذا الفرع من الطب مادة منفصلة في تخصصها الطبي إلا في النصف الثاني من القرن العشرين ، مما يدل على مكانة الكتاب وريادته في هذا المجال، تلك الريادة التي لا ينافسه فيها كتاب آخر.

اشتمل الكتاب على معارف طبية رفيعة المستوى عن الأجنة والحوامل والأطفال حديثي الولادة، وهو من أعظم الكتب التي تناولت تكون الجنين وطب الأطفال، وتمت ترجمته في القرن التاسع عشر الميلادي ، وكتبت عنه أبحاث مهمة بأقلام كبار العلماء أمثال فستنفلد، وشتاين شنايدر، ودوزي ، وآنخل جنثالث بالنثيا ، وألدوميلي وغيرهم. وقد أسهمت المعارف الطبية التي عرضها في تقدم طب الأطفال في

العـالم كلـه ، وكـان سـببًا مباشـرًا فـى إيجـاد فـرع للطـب يبحـث أحـوال الأطفال حديثى الولادة.

* * *

المؤلف :

هو عريب بن سعيد القرطبى الأندلسى، ولد فى أوائل القرن الرابع الهجـرى فـى قرطبـة. وهـو مـن أصـل أسـبانى، أسـلم آبـاؤه وانضمـوا إلى العرب وتسموا بأسماء عربية.

تلقى عريب القرطبى تعليمًا رفيع المستوى فى قرطبة وكتب مختصرًا لتاريخ الطبرى. وكان يأمل أن يعمل كاتبًا فى بلاط الخليفة عبدالرحمن الثـالث بـن محمـد بـن عبدالرحمـن الأوسـط الأندلسـى ، وحـدث تمـرد من بعـض الجنـود فى أشبونة، فبعث عريب بمقترحات للخليفة للقضاء على ذلك التمرد ، آملاً أن يلفت أسلوبه الأدبى الرشيق نظر الخليفة، ولكن لفت نظره أكثر ما فى تلك المقترحات من أسلوب للتعامل مع التمردين، فاستدعاه حيث عيّنه واليًا على أشبونة لمدة عام، ثم أعاده ليعينه كاتبًا فى بلاطه ، ثم صار كاتبًا لولده الخليفة الحكم المستنصر.

انتشرت شهرته فى مداواة الأطفال الصغار فطلب من الخليفة تأليف كتـاب فـى هـذا الميـدان، فـألّف كتـاب (خلـق الجنـين وتدبـير الحبـالى والمولودين).

عاش مقربًا من الخليفة الذى كان يقدر العلم والعلماء وكان كاتبه الخاص، فصارت له مكانة رفيعة فى الدولة، وعاش عيشة هانئة حتى وفاته سنة ٣٦٩هـ. وقد خلف ثلاثة مؤلفات : مختصر تاريخ الطبرى ، وتقويم قرطبة ، وكتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين ، والكتب كما نرى أحدها فى التاريخ والثانى فى الفلك والثالث فى الطب.

* * *

حين فرغ الطبيب من إلقاء كلمته توجه مدحت إليه فشكره على المعلومات القيمة التى أضافها إليه، وعاد مع زوجته فوقية إلى المنزل وهو فخور بما سمع، وسعيد بأن يكون فى مستشفى مدينته قسم للأطفال حديثى الولادة.

* * *

كتاب

التصريف لمن عجز عن التأليف

نظر محمد إلى مدير شئون الطلاب وكاد يقفز من الفرح. خرج من باب الجامعة وأشار لسيارة أجرة ، كان يريد أن تطير به إلى البيت طيرانًا.

صعد درجات السلم قفزًا حتى وصل إلى باب الشقة فوضع يده على جرس الباب ولم يرفعها إلا حيث فتحت والدته الباب فقبّلها من خديها وقال لها :

هنئيني يا أمى ! هنئينى !

قالت له :

مبارك عليك كل مايسعدك ياولدى .

قال لها :

لقد وافقت إدارة الجامعة على إرسالى فى بعثة إلى ألمانيا لإعداد رسالة الماجستير فى الجراحة.

تجمعت الأسرة فى المساء ، ولم يكن لأفرادها جميعهم حديث غير سفر محمد إلى ألمانيا لاستكمال دراسته هناك ، ورن جرس الباب، فقامت سلوى لتفتح الباب.

انتظروا جميعهم ليروا من القادم فإذا به خالهم مصطفى، فرح الجميع بمجيئه، فهو راجح العقل واسع الثقافة، يحترمه كل من يعرفه.

دار حديث ودى، ثم قال الخال مصطفى :

خبرنى يا محمد، ماذا تعرف عن الألمان ؟

قال محمد :

أعرف أنهم متقدمون علميًّا .

سأله :

وماذا أيضًا ؟

أجاب بمرح:

وأعلم أنهم مرضى بمسألة الاعتزاز بأنفسهم، فهم يعتبرون أنهم أفضل من بقية شعوب الأرض.

قال مصطفى :

وكيف ترى نفسك يا محمد وأنت مسافر إليهم ؟

قال محمد :

أنا مجرد طالب علم ، يرتحل إليهم كى يتعلم منهم، وأنا أضع فى اعتبارى ألا أتسبب فى مشكلة بشأن امتيازهم وعصبيتهم .

حينذاك قال الأب :

أحسنت يا محمد .

وقالت الأم :

هذا هو السلوك القويم والتفكير الحكيم.

لكن الخال مصطفى قال :

وهل أنت مقتنع بأنهم الأفضل يامحمد ؟

صمت محمد ، وقالت الأم :

هم الأفضل مادمت ستذهب لتتعلم منهم يامصطفى.

قال مصطفى :

إنما هم يردون جزءًا من الدَّيْنِ الذى فى رقبتهم لنا.

سأل محمد :

كيف يا خالى ؟

أجاب مصطفى:

إن العالم كله لم يتعلم الجراحة إلا من أجدادنا العظماء يا محمد ، فإن أعظم جرّاح جعل الجراحة علمًا قائمًا بذاته هو طبيب عربى ، وقد ألّف أول كتاب فى الجراحة فى العالم كله .

سأله محمد :

ومن ذلك الجراح العبقرى ياخالى ؟

أجاب مصطفى :

إنه أبو القاسم الزهراوى صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف.

طلب منه محمد أن يحدثه عن ذلك الجراح وكتابه .

فأخذ خاله يحدث الجميع عن الزهراوى وكتابه ودوره فى علم الجراحة.

* * *

الكتاب

يعد كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى من أعظم الكتب التى تم تأليفها فى الجراحة العامة، والكتاب كبير يقع فى ثلاثين جزءًا أسمى كل جزء منها مقالة ، ويحتوى على بحوث فى ثلاثة أفرع:

الأول : فى الطب الداخلى (أو الباطنى)، وأسماه تقسيم الأمراض.

الثانى : فى الأقراباذين أى الأدوية.

الثالث : فى الجراحة، وهو أهم هذه الأجزاء، وجعل (الكىّ) عنوانًا له ، ونلاحظ أنه ذكر الأدوية بخمس لغات هى اليونانية، والسريانية، والفارسية، والبربرية (لغة أهل المغرب) ، والعربية، وبذلك يسَّر على الباحثين معرفة الدواء الذى يصف طرق تحضيره.

وقد امتاز كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف بسهولة الأسلوب وكثرة الرسوم للآلات الجراحية التى كانت تستعمل فى الجراحة آنذاك،

بالإضافة إلى عدد كبير من الآلات الجراحية التى ابتكرها الزهراوى ، وبعضها لم يزل مستخدمًا كما اخترعه الزهراوى دون تغيير حتى يومنا هذا.

يشتمل الكتاب على مقدمة وثلاثين مقالة بيانها كالتالى :

١- تقسيم الأمراض، ويبحث فيها الأمراض الباطنية التى تصيب الإنسان.

٢- تركيب الأدوية.

٣- وصف المعاجين.

٤- وصف الأدوية المفردة فى جميع السموم.

٥- وصف الأيارجات القديمة والحديثة وادخارها.

٦- وصف الأدوية المسهلة من الحبوب المرة.

٧- أدوية القيء والحقن.

٨- الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم.

٩- أدوية القلب.

١٠- الآطريفلات والبنادق المسهلة.

١١- الكمونيات.

١٢- الأدوية المدرّة للّبن.

١٣- الأشربة والسكبنجينات والزيوت.

١٤- النخانخ المطبوخات.

١٥- المربيات.

١٦- السقوفات بأنواعها .

١٧- الأقراص المسهلة وغير المسهلة.

١٨- السعوطات والقطورات.

١٩- أدوية الزينة.

٢٠- الأكحال.

٢١- أدوية الفم والحلق.

٢٢- أدوية الصدر والسعال.

٢٣- الضماد.

٢٤- صناعة المرهم.

٢٥- الأدهان ومنافعها.

٢٦- الأطعمة التى تعطى للمرضى.

٢٧- خواص الأدوية والأغذية.

٢٨- صنع الأدوية.

٢٩- تسمية العقاقير بلغات متعددة.

٣٠- الكيّ.

واشتملت المقالة الثلاثون على معلومات تعد من أعظم ما كتبه العلماء فى فن الجراحة فى العالم بأسره، وظل ما ورد فيها مصدرًا لدراسة هذا الفن فى أوروبا لمدة خمسة قرون من الزمان ، وقد أوضح

الزهراوى أهمية هذه المقالة التى اشتملت على كثير من تفصيلات العمليات الجراحية والآلات المستخدمة فيها ، وذكر أن هذه المقالة تشتمل على ما يحقق الكمال لعلم الطب، وذلك فى مقدمتها إذ يقول موجهًا الحديث لتلاميذه :

"لما أكملتُ لكم يابنىَّ هذا الكتاب الذى هو جزء العلم فى الطب بكماله ، وبلغت فيه من وضوحه وبيانه، رأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة، التى هى جزء العمل باليد (الجراحة) ، لأن العمل باليد - فى بلادنا وفى زماننا - معدوم البتة، حتى كاد يندرس علمه وينقطع أثره ، والسبب فى أنه لا يوجد صانع محسن - فى زماننا هذا - أن صناعة الطب طويلة، وينبغى لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك فى علم التشريح الذى وضعه جالينوس ، حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئتها وأمزجتها واتصالها وانفصالها ، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها ، والعروق والنوابض والسواكن ومواضع مخارجها ، ولذلك قال أبقراط: إن الأطباء بأسماء كثيرة وبأفعال قليلة، لاسيما صناعة اليد (الجراحة) ، وقد ذكرنا من ذلك طرفًا فى المدخل من هذا الكتاب، لأنه من لم يكن عالمًا بما ذكرنا من التشريح لم يخلُ أن يقع فى خطأ يقتل الناس به".

وهكذا يوضح الزهراوى رؤيته لفن الجراحة الذى كان يسمى عمل اليد، أو صناعة اليد. فهو يرى أن الجراحة هى قمة ما يمكن أن يصل إليه

الطبيب العالم، إذ إن إتقانها يستلزم التبحر فى دراسة التشريح ، ومعرفة منافع الأعضاء، ويسترشد برأى أبقراط الذى يؤكد قلة الممارسين للجراحة لصعوبتها، مع أنها هى العمل الجليل الذى يمكن أن يقوم به الطبيب البارع.

ولكن الزهراوى حذّر - فى كتابه - من العلاج بالجراحة إذا كان يمكن العلاج بالعقاقير ، وحذر زملاءه الأطباء - بشدة - من إجراء العمليات الجراحية إذا لم يكونوا ملمين بصغائر الأمور وكبائرها فى استعمال الآلات الجراحية وتفننهم فى علم التشريح.

إن كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف يعد أثرًا علميًّا عظيمًا فى ميدان الطب بوجه عام وفى الجراحة على وجه الخصوص، مما جعل المؤرخين يضعونه فى طبقة أشهر المفكّرين فى العصور الوسطى.

ومن الجدير بالذكر أن الزهراوى وصف الجراحة بأنها فن قائم بذاته، مستقل عن المداواة ومتصل بالتشريح ، وهذه رؤية متقدمة للجراحة لا تصدر إلا عن مفكّر راجح العقل ثاقب الرأى.

* * *

أهمية الكتاب :

تتجلى أهمية هذا الكتاب فى أنه أعظم كتاب فى علم الجراحة تم تأليفه فى القرون الوسطى ، وكان الاعتماد عليه كاملاً فى العصور الوسطى وفى عصر النهضة الأوروبية.

وليس بمستغرب أن يكون أعظم جرَّاحى العالم عربيًّا، إذ كان العمل فى الجراحة فى أوروبا عملاً غير مقبول بين الأطباء، وكان الممارسون له من أبناء الطبقات الدنيا ، لذلك كان الإقبال على الجراحة محدودًا جدًّا، بينما كان للجراحة رصيد لدى الأطباء العرب إذ كان الرازى أول من اهتم بالجراحة ، وتبعه على بن عباس الأهوازى وابن سينا ، كما ظهر ابن زُهر فى الأندلس فجمع بين الطب العام والجراحة . إلا أن المؤرخين يجمعون على أن الجراحة لم تصل إلى النضج والامتياز إلا على يد الزهراوى الذى أجرى عمليات جراحية كثيرة جدًّا واستعان بالآلات والأدوات وجعل الجراحة علمًا مستقلاً.

واختلفت تسمية الممارس للعمل الجراحى بين بلاد العرب وأوروبا ، فقد كان الجرَّاح يمنح لقب طبيب جرَّاح :

Medico - Surgeon.

أما فى أوروبا فكان يمنح الجرَّاح لقب حلاق جراح :

Barber - Surgeon.

وهو مثل حلاق الصحة الذى كان موجودًا بالريف المصرى.

ولعل اختلاف التسمية يبين الفرق بين رؤية العرب ونظرتهم إلى الجراح ورؤية الأوروبيين ، لهذا لم يكن مستغربًا أن يظهر أعظم الجرَّاحين من بين العرب.

وتعود عظمة كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبى القاسم خلف الزهراوى إلى اشتماله على فتوحات علمية باهرة فى مجال الجراحة، فابتكر طرقًا جديدة فى علاج كثير من الأمراض التى تحتاج إلى عمليات جراحية، منها جراحات الكبد التى حيرت أطباء عصره ، إذ كانوا كلما فتحو الخراج وحدوه يرجع مرة أخرى، فلجأ الزهراوى إلى شق الخراج وكيِّه فى نفس الوقت، فلا يعود الخراج للوجود مرة أخرى، وقام بجراحة صابونة الركبة، واستخراج الحصاة من مثانة المرأة ، وشق القصبة الهوائية فأنقذ مرضى الدفتيريا، كما قام بعمليات البتر، وتوسيع باب الرحم، كما عالج بنجاح الشلل الناشىء عن كسر فقرات الظهر، وكتب أبحاثًا مبتكرة فى جراحة الأسنان والعيون، وفى الفتق، والولادة، وفى الكسر والخَلْع ، وهو أول من وصف عملية تفتيت الحصاة فى المثانة، وهو أول من قام بربط الشرايين لمنع النزيف.

ويذكر المؤرخون أن الزهراوى أول من وصف مرض الناعور (الهيموفيليا)، وهو مرض وراثى خطير متصف بصعوبة تجلط الدم إذا تعرض المصاب به لأى نوع من أنواع النزيف، وكان الزهراوى هو أول من وصف هذا المرض وأعطى علاجًا للمصاب به.

وكان مرض السلطان - والعياذ بالله - من الأمراض التى شغلت الزهراوى ومعاصريه، وقد استطاع أن يصف هذا المرض الخبيث وعلاجه، وظل ما قاله الزهراوى فى هذا الشأن مستعملاً منذ أحد عشر

قرنًا ، لم يزد عليه أطباء القرن العشرين كثيرًا، ونقتطف جزءًا مما قاله فى ذلك إذ يقول :

"متى كان السرطان فى موضع لا يمكن استئصاله كله - ولاسيما متى قدم وعظم - فلا ينبغى أن تقربه، فإنى ما استطعت أن أبرىء منه أحدًا، ولا رأيت الغير والكل كذلك ، أما إذا كان مركزه حيث يمكن إخراجه، كالذى فى الثدى أو فى الفخذ ونحوهما من الأعضاء ، ولاسيما إذا كان مبتدئًا صغيرًا، فالعمل فيه أن نسهل العليل مرات من السوداء، ثم نفصده إن كان فى العروق امتلاء من دم ، ثم ننصب المريض نصبة يتمكن فيها من العمل ، ثم نلقى فى السرطان السنانير (آلات الشق والقطع) التى تصلح له ، ثم نقوّره من كل جهة مع الجلد على استقصاء، حتى لا يبقى منه شىء من أصوله، واترك الدم الغليظ يسيل كله بيدك أو بما أمكنك من الآلات ، فإن عرض فى عملك نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد فاكْوِ العرق حتى يقطع ، ثم عالجه بسائر العقاقير والعلاج ، والله الشافى".

نلاحظ الشعور الإيمانى العميق فى كتابات الزهراوى العلمية فهو يذكر مايجب القيام به علميًّا تجاه المريض، لكنه لا ينسب لنفسه القدرة على شفاء المرضى، وإنما يؤكد دائمًا أن الشفاء من الله - سبحانه وتعالى - وأن الطبيب وسيلة لا أكثر.

ولايمكننا عدم الإشارة إلى ماذكرته المستشرقة الألمانية د. زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) بشأن أبى القاسم الزهراوى ، فهى تقول من ضمن ما تقول عنه :

"درس الزهراوى علاج تشويهات الفم والفك ، وتمكن من استئصال الأورام الليفية فى الأغشية المخاطية، ونجح فى عملية شق القصبة الهوائية (تراكوتومى) ، ووُفق أيضًا فى إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة محسِّنًا بذلك عملياته الجراحية، وهو فتح علمى كبير ، ادَّعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسى الشهير أمبرواز بارى Ambroise pare عام ١٥٥٢م، فى حين أن أبا القاسم الزهراوى العربى قد حققه وعلمه قبل ذلك بـ ٦٠٠ عام. كما أنه علّم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكل التخييط بإبرتين وخيط واحد مثبت منها ، واستعمل الخيوط المستمدة من أمعاء القطط فى جراحات الأمعاء. وقد أوصى فى كل العمليات الجراحية التى يتم إجراؤها فى النصف السفلى من الإنسان أن يُرفع الحوض والأرجل قبل أى شئ ، وهذه طريقة اقتبسها الغرب مباشرة عن الجراح العربى الزهراوى، واستعملها الغرب كثيرًا حتى قرننا هذا، فعرفت باسم الجراح الألمانى القدير فريدريك ترندى لينبورج Frederich Trende Lenburgh ، بينما الفضل فى هذا يرجع إلى الجراح العربى العظيم، وعنه - أى عن الزهراوى - أخذنا أيضًا طريقة ترك فتحة فى رباط الجبس فى الكسور المفتوحة، وأمد الجراحين وأطباء

العيون والأسنان الأوروبيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التى وصفها".

ومن الأمور التى تدعو للزهو قيام الزهراوى بإجراء عمليات التجميل، وهى من العمليات التى ظن الناس أنه لم يتم إجراؤها إلا فى العصر الحديث، ولا عجب فى أن العرب قد فكروا فى مثل هذه العمليات، فقد كان إحساسهم بالجمال إحساسًا رفيعًا ، يؤكده ماورد فى كتاب (الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى) للدكتور محمد مصطفى هدارة حيث ذكر أنه كانت توجد محلات لبيع الزهور فى سوق بغداد، أى أنه منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمان كان أجدادنا يقدمون الزهور هدايا فى المناسبات، وهذا دليل على ما وصلوا إليه من رقة وذوق فى التعاملات الإنسانية.

بقى أن نذكر ما أضافه الزهراوى من آلات وأدوات أسهمت فى تقدم الجراحة، منها آلات لم تزل مستخدمة إلى يومنا هذا كما اخترعها الزهراوى مثل الآلة الخاصة باستئصال لحمية الأنف، وخافض اللسان، ومرآة المهبل، والآلة الخاصة بتوسيع باب الرحم للعمليات وغيرها.

والزهراوى هو أول من استعمل خيوط الحرير للربط فى العمليات الجراحية، وأول من قام بتخييط الجروح بشكل داخلى بحيث لا يترك شيئًا مرئيًا فيها ، وأول من قام بالتخييط بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما، وعلّم كل ذلك لتلاميذه.

وهو أول من وصف محقنة شرجية مربوطة عليها جلدة لحقن الأطفال، وأول من استعمل المحقنة المعدنية لزرق المحاليل الطبية فى المثانة.

لقد كان الزهراوى نابغة زمانه ، ورائد فكر جديد ، أوجد الآلات الحديثة، وابتكر عمليات جراحية لم يسبقه إليها أحد ، وقدم نظريات طبية رفع بها من شأن الجراحة وجعلها فرعًا طبيًا مستقلاً يتمتع بمكانة سامية بين فروع الطب الأخرى، ووضع الأسس للجراحة الحديثة، ولذلك سمى بأبى الجراحة.

ترجم كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف إلى لغات عدة ، وكانت أولى الترجمات إلى اللغة اللاتينية ١٤٩٥م فى مدينة البندقية وتلتها ترجمات إلى اللغات العالمية المختلفة، وظل يُدرَّس فى جامعات أوربا لمدة خمسة قرون بصفته أعظم كتاب فى الجراحة عرفه العالم خلال تلك الفترة.

* * *

المؤلف:

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى القرطبى الأندلسى ، ولد سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م فى مدينة الزهراء التى تقع على بعد ستة أميال شمال غربى قرطبة ببلاد الأندلس، ويعود أصل آبائه إلى الأنصار بالمدينة المنورة.

درس الزهـراوى العلـوم الشـرعية واللغـة والنبـات والرياضيـات والطـب وغيرهـا، لكنـه تعمـق فـى دراسة العلوم الدينية والعلوم الطبية، ونبغ فى الجراحة.

وصلـت شـهرته الطبيـة إلى حـاكم الأندلـس الخليفـة الناصر عبدالرحمن الثـالث ابـن محمـد بـن عبـدالله الأمـوى ، فعينـه طبيبًـا خاصًّـا لبلاطـه فـى قرطبـة، وكـان الزهـراوى فـى أوائـل العشرينيات من عَمره آنذاك، وبعد فـترة عـاد إلى مدينتـه الزهـراء حيـث اسـتمر فـى دراسـته الشـرعية، وداوم علـى أبحاثـه فى العلوم الطبيعية، وقضى معظم حياته يمارس مهنة الطب فـى الزهراء، ونال شهرة عريضة جعلت المرضى والأطباء يسعون إليه ، هـؤلاء يبحثـون علـى الشـفاء، وأولئـك يبحثـون عـن العلـم ، وصـار لـه تلاميذ من كافة الأرجاء.

واهتـم الزهـراوى بالتـأليف فـى العلـوم الطبيـة فاسـتفاد معـاصروه مـن مؤلفاته، كما استفاد منها علماء الشرق والغرب بعد ذلك ، وقد وصف الجراحة بأنها فن قائم بذاته متصل بالتشريح ومستقل عن المداواة.

مـن أشـهر كتبـه كتـاب (التصريـف لمـن عجـز عـن التـأليف) ، وهـو موسـوعة طبيـة يشـتمل علـى أبحـاث قيمـة فى الأمراض الباطنية والأدوية وأمراض النساء والجراحة. فكان ماكتبه فى الجراحة على وجه الخصوص مصدرًا لأطباء الدنيا بأسرها لتعلم الجراحة.

وقد سجل كثيرًا من وصاياه لتلاميذه فى ذلك الكتاب، مثال ذلك قوله :

"أوصيكم يا بَنِيَّ عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم، فإنه قد يقع إليكم فى هذه الصناعة ضروب من الناس بضروب من الأسقام ، فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة مايجده من سقمه، ومنهم من قد يبذل ماله ويعينك به رجاءً للصحة ومرضه قتّال، فلا ينبغى أن تباعدوا ألبتة بينكم وبين مَنْ هذه صفته، وليكن تحذُّركم أشدَّ من رغبتكم وحرصكم ، ولا تُقْدِموا على شىء من ذلك إلا بعد علمٍ يقين يصبح عندكم بما تصير إليه العاقبة المحمودة ، واستعملوا فى علاج مرضاكم تقْدِمَة المعرفة والإنذار إلى ماتئول إليه السلامة، فإن لكم فى ذلك عونًا على اكتساب الثناء والمجد والذكر الكريم".

وقد حرص الزهراوى على رسم آلات الجراحة التى استخدمها فى عملياته الجراحية، وقد ساعد ذلك على تصنيع تلك الآلات والأدوات واستخدامها فى كل أرجاء العالم.

ونثبت هنا صورًا لعدد كبير من الآلات والأدوات الجراحية التى استعملها الزهراوى، سواء تلك التى كانت موجودة قبله واستعملها بعد تطويرها، أو التى ابتكرها بنفسه ، وجميعها موجودة فى كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وكانت تلك الآلات تصنع إما من الحديد أو الذهب أو النحاس.

عاش أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى القرطبى الأندلس الأنصارى حتى سنة ٤٠٤هـ بعد أن حقق فتوحات علمية جليلة فى مجال الجراحة، وخلف من المؤلفات كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، وكتاب أعمال العقاقير المفردة والمركبة.

ولايمكننا أن نختتم الحديث عن الزهراوى دون أن نشير إلى أنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية.

* * *

حين فرغ الخال مصطفى من الزهراوى وكتابه ودوره فى الجراحة كانت الأسرة بكل أفرادها تشعر بالفخر لأن الطبيب العربى أبا القاسم الزهراوى استطاع أن يحقق كل هذه الإنجازات العلمية الباهرة.

واستعد محمد للسفر إلى ألمانيا لإعداد رسالة الماجستير فى الجراحة وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن اجتهاده فى تحصيل العلم سوف يمكّنه من تحقيق إنجازات علمية فى ميدان الجراحة لم يحققها أحد قبله، وصار مقتنعًا بأن العقلية العربية تستطيع أن تحقق المعجزات.

* * *

كتاب
المَالَنْخُولْيَا

تعجب المرضى من الأصوات المرتفعة القادمة لهم من داخل إدارة مستشفى الأمراض العقلية، واستاء بعضهم وضحك البعض الآخر، ولم يهتم عدد منهم بما يحدث.

كان اجتماعٌ لأطباء المستشفى معقودًا فى غرفة المدير، وهم هكذا دائمًا فى اجتماعاتهم كلها، يختلفون فى الرأى فيتشاجرون بأصوات مرتفعة تزعج المرضى.

كان حسن هو أحدث طبيب انضم إلى أسرة الأطباء بالمستشفى، لذلك كان هادئ الأعصاب إلى حد ما أكثر من بقية الأطباء بما فيهم المدير نفسه.

اشتعل الخلاف فى نقطة تاريخية، وكان الاجتماع فى أساسه بغرض عرض دواء جديد وصل إلى إدارة المستشفى من إنجلترا، قال أحد الأطباء إن الدواء الفرنسى أكثر تأثيرًا، فقال آخر بل الإنجليزى، لأنهم أول من داوى المرضى عقليًّا، وهنا تدخل طبيب ثالث صارخًا بحدة أن زميله مخطىء فإن الإيطاليين هم أول من داوى المجانين، حينذاك اشتعل الخلاف.

حـاول د. حسـن أن يتكلـم ولكـن لم ينصـت إليـه أحـد، فقـد كـانوا جميعهم مشغولين فى الجدل حول أول من داوى المرضى بعقولهم ، وكل منهـم يحـاول إثبـات رأيـه برفـع صوتـه أعلـى مـن زميلـه. ولم يستطع د. حسن الكلام إلا حين صرخ فيهم : اصمتوا عليكم اللعنة!

سكتوا جميعهم ونظروا إليه باستغراب ، فقال :

اعلمـوا أنكـم مخطئـون جميعكـم ، لأن أول مـن داوى المرضـى بعقولهـم هـو الطبيـب العربـى إسـحق بـن عمـران البغـدادى الـذى ألّـف كتـاب (المالنخوليـا) وهـو أول كتـاب فـى العـالم يؤلّـف فـى هـذا الموضـوع ، فأنصتوا كى أحدثكم عنه.

سكتوا جميعهم وأنصتوا إلى د. حسن .

* * *

الكتاب

اشتمل كتاب المالنخوليا لإسحق بن عمران البغدادى على معلومات طبيـة فـى غايـة الأهميـة بشـأن الأمـراض العقليـة وسبل علاجها، وسجل رؤيـة متطـوره بالنسـبة للمرضـى عقليًّـا، فقـال إن لكـل داء دواء، وأن الله عز وجل لم يخلق داء إلا وخلق له دواء، ولداء قد يصيب أى جزء من أجـزاء الجسـم كـالكبد أو المعـدة أو العقـل. وفـى حالـة المالنخوليـا يكـون

الداء فى العقل، وهو داء مثل أى داء آخر يتدرج من الضعف إلى القوة، ويمكن علاجه - مثل أى مرض آخر - بتحويل الإصابة به من القوة إلى الضعف، ثم الشفاء بإذن الله .

وقد استقر القدماء على أن للجسم أربع طبائع تقابلها أربعة أخلاط أو سوائل، البرودة يقابلها البلغم، والحرارة يقابلها الدم، واليبوسة تقابلها السوداء، والرطوبة تقابلها الصفراء.

وكان إسحق بن عمران هو أول من عرَّف الملنخوليا تعريفًا طبيًّا فقال : "المَلَنْخُولْيَا مرض عقلى ، من مظاهره فساد التفكير، ينشأ من تغلُّب السوداء فى الدم، وهى أحد الأخلاط الأربعة، وهى تتغلب فى الدم نتيجة لعجز الطحال عن امتصاصها منه".

وذكر إسحق بن عمران فى كتابه أن فساد التفكير درجات، فقد يكون ضعيفًا وقد يكون عظيمًا. وقال إن الملنخوليا تنشأ من خلل فى الجسم مثل تغلُّب السوداء، وتنشأ - فى بعض الأحيان - من خلل فى النفس يؤدى إلى نوع من الخَبَلِ، وقد ذكر تشخيص الملنخوليا فقال :

"علامة ابتداء الملنخوليا : ظن ردئ ، وخوف بلاسبب، وسرعة غضب، واختلاج ودوار ودوىّ، فإذا استحكم المرض أدى إلى التفزع وسوء الظن، والغم والوحشة والكرب، والهذيان بالكلام ، والخوف مما لا يخيف فى العادة ، فبعضهم يخاف أن تسقط عليه السماء أو تبتلعه الأرض أو غير ذلك ، وربما تخيل نفسه ملكًا أو سبعًا أو شيطانًا أو طيرًا

أو آلة، ومنهم من يضحك لأنه يتخيل مايلذه ويسرُّه ، ومنهم من يبكى، ومن علامات ذلك أيضًا الإفراط فى التفكير ودوام الوسواس والنظر الدائم إلى الشىء الواحد أو إلى الأرض. ويدل على المالنخوليا لون الرأس، والوجه ، والعين ، وسواد شعر الرأس وكثافته".

وتعرض إسحق بن عمران إلى سبل علاج المضرى عقليًّا فذكر أمورًا لم يزل كثير منها مستخدمًا حتى اليوم ، بل إننا نستطيع القول إنه توصل إلى الخطوط العريضة لمعالجة مثل هذه الأمراض ، بعد أن قام بتجارب كثيرة على المرضى الذين جمعهم فى المستشفى الذى أنشأه بالقيروان لهذا الغرض، فنجده يقول :

"يجب المبادرة بعلاج مرض المالنخوليا قبل أن يتحكم ، فإنه - مثل كل الأمراض- سهل فى الابتداء صعب عند الاستحكام. ويجب على كل حال أن يفرح المريض ويطرب ويجلس فى المواضع المعتدلة، وأن تحيط به الروائح الطيبة للرياحين والأدهان وغير ذلك، وأن يُبادر بالحمام قبل تناول الطعام، ويجب العمل على تخصيب بدنه بالأغذية المرطِّبة، ويجتنب الباقلاء والقديد والعدس والكرنب، وكل مملح ومالح وحِرِّيف، وكل شديد الحموضة، بل يجب أن يتناول الدسم والحلو. وإذا أريد تنويمهم ، فلك أن تنطل رءوسهم بماء الخشخاش والبابونج والأقحوان، فإن النوم من أوفق علاجاتهم. وأصل العلاج ثلاثة أشياء : أولها الفصد فى الأكحل مع استفراغ المادة بالحقن وبالقئ، وثانيها أن يستعمل -مع

الاستفراغ- الترطيب الدائم بالنطولات والأدهان، ويجعل فيها أدوية مثل البابونج والشبث وإكليل الملك وأصل السوسن، وثالثها العمل على تقوية القلب، إن أحس بمزاج بارد فبالمفرِّحات الحارة، وإن أحس بمزاج يميل إلى الحرارة فبالمفرِّحات المعتدلة، وإن كانت الحرارة شديدة جدًّا فاستعمل المفرِّحات الباردة غير المفرطة البرد، ويمكن معرفة ذلك من النبض".

ويبقى أن نذكر أن كتاب المالنخوليا لإسحق بن عمران البغدادى من الكتب نادرة الوجود الآن ، إذ لا توجد منه فى أنحاء العالم غير مخطوطة واحدة محفوظة فى مكتبة ميونيخ بألمانيا.

* * *

أهمية الكتاب :

تتجلى أهمية كتاب المالنخوليا لإسحق بن عمران فى ريادته ، فهو أول كتاب يتم تأليفه فى تشخيص وعلاج الأمراض العقلية فى العالم ، وكان الأوروبيون يعتقدون أن السبب فى الجنون مس من الشياطين ، وكانوا لا يمانعون فى قتل من أصيب بهذا ، بينما كان إسحق بن عمران يبحث بأسلوب علمى أسباب الإصابة بالمرض العقلى وطرق العلاج، وقد أثنى عليه لذلك ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة، كما أشاد به كل من فستنفلد، وريتر، وماير، وكارل بروكلمان وغيرهم.

وقد اتفقت رؤية الأطباء والعلماء فى القرن العشرين مع كثير من آراء إسحق بن عمران التى ذكرها منذ ١٢ قرنًا مضت من الزمان. فقد عرَّف المالنخوليا بأنها مرض عقلى من مظاهره فساد التفكير، وينشأ من تغلب السوداء فى الدم وذلك لعجز الطحال عن امتصاصها.

والمالنخوليا فى تعريف المحدثين : مرض عقلى ، من مظاهره اضطراب الوجدان وتغلب الغم والحزن والقلق وضيق الصدر والميل إلى التشاؤم ، وسببه اضطرابات جثمانية أهمها عدم الاعتدال فى نشاط الغدد الصمَّاء.

وذكر إسحق بن عمران أن المالنخوليا تنشأ عن خلل فى البدن أو عن خلل فى النفس يؤدى إلى نوع من الخَبَل.

وقال سيجموند فرويد فى كتاب التحليل النفسى : ينقسم الاختلال العصبى إلى نوعين : أولهما الاختلال الذى يصيب الأعصاب فعلاً كالنور ستانيا ، والتهيج العصبى، والهيوكنداريا أو الوسواس، أما النوع الثانى فهو الاختلال العصبى النفسانى مثل الهيستيريا والخبل.

نرى من هنا أن كتاب المالنخوليا لإسحق بن عمران قدم آراء جليلة ورؤية علمية ثاقبة ، كما قدم وسائل للعلاج لم يزل بعضها مستخدمًا حتى الآن، يأتى فى مقدمتها ضرورة إقامة المريض عقليًّا فى مكان جميل تتواجد فيه الحدائق والعطور، وإعطاؤه بعض الأطعمة ومنعه عن بعضها لأسباب علمية، وضرورة تنويمه فترات طويلة إذ إن هذا من سبل

العلاج، بالإضافة إلى ما عرضناه فى حديثنا عن محتويات الكتاب.

وقد أسهم كتاب المالنخوليا فى تقدم الأبحاث ووسائل العلاج للأمراض العقلية، وكان سببًا فى فتح باب الاجتهاد فى هذا المجال للأطباء العرب ثم للأطباء فى أرجاء العالم.

* * *

المؤلف :

ولد إسحق بن عمران البغدادى فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث الهجرى، ولد ونشأ وتعلم فى بغداد ، واشتهر بها بصفته واحدًا من أبرع الأطباء، فداوى حالات ميئوس من شفائها، وكان كثير الحنان على المرضى، وسارت شهرته عبر البلاد حتى وصلت إلى القيروان فى تونس، وكانت عاصمة دولة الأغالبة فاستدعاه زيادة الله بن الأغلب التميمى ملك أفريقية ، وبعث له راحلة أقلّته إلى تونس وألف دينار، وكتاب أمانٍ بخط يده أن يعود إلى وطنه متى أحب ذلك.

وكان إسحق بن عمران خبيرًا بالأدوية واكتشاف الأمراض، وقد انتشر الطب بسببه فى بلاد المغرب العربى وعُرفت الفلسفة، ونال مكانة رفيعة لدى زيادة الله بن الأغلب التميمى بانى جامع القيروان الشهير، وغازى شواطىء أوروبا مرات عدة، وهو من الملوك الأقوياء، وكان حاد المزاج جدًّا، وعانى من مرض الربو.

طلب إسحق بن عمران أن يأذن له الملك فى العودة إلى بلاده لكنه رفض، وخالف كتاب الأمان الذى كان قد كتبه له . وكان إسحق يتابع طعام الملك فيأمره بتناول أطعمة معينة وينهاه عن أطعمة أخرى. ووفد على الملك طبيب صغير من الأندلسى، وكان يهوديًّا تقرَّب إلى الملك بخفة ظلّه وتخفيفه عليه فى مسألة الأكل، وكان يقول له : إن إسحق بن عمران يصعّب عليك الأمور، ويضيّق عليك فى منع الأطعمة وليس فيها ضرر.

ذات يوم جاءوا للملك بلبن (رائب) فحذّره إسحق من تناوله بينما نصحه الطبيب اليهودى بتناوله، فتناول الملك منه ، وحين جاء الليل أوشك على الهلاك، فأسرع بطانة الملك إلى إسحق وأطعوه خمسمائة مثقال من الذهب ليعالجه، فأبى وقال : قد نصحته فلم يستمع إلىَّ واتبع رأى اليهودى ، فلتذهبوا إليه ليعالجه. ولكن حين أعطوه ألف مثقال قام بعلاجه، إذ أعطاه ثلجًا وأمره بالأكل منه حتى امتلأ ، ثم قيَّأه فخرج اللبن وقد تجبن ببرد الثلج. فقال الملك : باع إسحق روحى فى البدء فاقطعوا عنه رزقه.

لكن إسحق بن عمران خرج إلى مكان فسيح فى القيروان وجلس يداوى الناس، وقد جلس على كرسى ووضع أمامه منضدة عليها أوراق ودواة وأقلام ، وأخذ يكتب الوصفات الدوائية للناس فنال مالاً جزيلاً.

حين رأى الملك ذلك أمر بحبسه، فتبعه الناس إلى السجن، ثم أخرجه الملك ذات ليلة ليعاتبه، فاشتدت المناقشة بينهما حتى أن الملك أمر بفصد ذراعيه حتى سال كل دمه ، وصلبه زمنًا طويلاً حتى عشش طائر فى جوفه ، وكان مقتل إسحق بن عمران سنة ٢٩٦هـ. وفى أواخر تلك السنة مات الملك مجنونًا.

حوصر إسحق بن عمران بالمجانين ، فكان يقابلهم فى بغداد ، وأثناء سفره حتى وصل إلى القيروان ، فوجد بها عددًا من المجانين، وكان زيادة الله بن الأغلب نفسه يعانى من بعض الاضطرابات العقلية. وكان حنونًا على هؤلاء المجانين، إذ كان مقتنعًا بأنهم مرضى ، بينما كان رأى الناس مختلفًا فيهم . لذلك عكف إسحق بن عمران على دراسة أحوال المختلين عقليًّا، وبحث عن أسباب إصابتهم بذلك المرض، وحاول تقديم أدوية تخفف مما هم عليه ، وألف كتابًا بعنوان المالنخوليا.

وبالإضافة لكتاب المالنخوليا ألّف إسحق بن عمران كتاب نزهة النفس، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب العنصر والتمام فى الطب، وكتاب فى الفصد، وكتاب فى النبض، وكتاب فى البول، وفى كلام أبقراط وجالينوس وغيرهما، وكتاب أقوال جالينوس فى الشراب، وألّف أيضًا مقالات منها مقالة فى لطائف الحكمة ونوادر الطب ، ومقالة فى علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته.

لا توجد ترجمة لحياة إسحق بن عمران إلا فى ثلاثة كتب، منها

كتابان عربيان هما طبقات الأطباء والحكماء لسليمان بن حسان المعروف بابن جُلْجُل، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، أما الكتاب الثالث فهو ألمانى بعنوان تاريخ الأطباء والعلماء العرب للمستشرق فستنفلد، وقد طُبع فى جوتنجن بألمانيا سنة ١٨٤٠م.

يُذكر لإسحق بن عمران أنه أنشأ أول مستشفى للأمراض العقلية فى العالم، جمع فيها المرضى بعقولهم، وجرّب عليهم الأدوية ، فخفف من الحالة المرضية لبعضهم وشُفى بعضهم ، وكان ذلك فى مدينة القيروان ، وقد كان هذا الأمر هاديًا للأطباء العرب بعد ذلك فجعلوا قسمًا للمرضى عقليًّا فى كل مستشفى يقومون بإنشائه.

* * *

استقبل الأطباء في مستشفى الأمراض العقلية حديث د. حسن بشغف شديد، وإن كان كثير منهم قد تذكر أن مثل هذا الكلام قد مر عليه من قبل، ولكن على أي حال هدأت أصوات الأطباء، مما جعل المرضى فى حديقة المستشفى يشعرون بالتوتر حين رأوا الاجتماع مستمرًّا دون أن تعلو أصوات شجار الأطباء.

* * *

صدر للمؤلف

دواوين شعرية :

١- أغنية لسيناء (مشترك) -الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥
٢- الترحال فى زمن الغربة - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٨٤
٣- من سمفونية العشق - المركز القومى للفنون والآداب ١٩٨٥
٤- فصل فى الجحيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥
٥- ولهية إلى الإسكندرية - مديرية الثقافة بالإسكندرية ١٩٨٨
٦- النيل يعبر المواسم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩١
٧- قطران من شلال النار - الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣
٨- مسافات السفر -المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٦

دراسات :

١- إطلالة على الشعر السعودى -نادى جازان الأدبى -السعودية ١٩٨٥
٢- أحمد بن ماجد أسد البحار - دار المعارف ١٩٩٥
٣- زرياب عبقرى النغم -مكتبة ومطبعة الغد ١٩٩٧
٤- مبادئ العروض - مطبوعات أصوات معاصرة ١٩٩٧

قصص للأطفال :

١- عمر المختار (طبعة أولى) دار الشرق -دولة قطر ١٩٨٩
(طبعة ثانية) المكتب العربى للمعارف -القاهرة ١٩٩٧

٢- عبد الرحمن الداخل صقر قريش -دار الشرق - دولة قطر ١٩٨٩

٣- الصوت الغريب -دار المعارف ١٩٩٤

الفهرس